الخطاب الروائي ونقد الواقع
(تغريبة أحمد الحجري) نموذجاً.

د. شامخة طعام
المركز الجامعي - تيسمسيلت

تمهيد:

إن عودة بعض الروائيين إلى مخطوطات قديمة ومحاولة استحضارها من جديد وتقريبها للقارئ يثبت من ناحية قدرة الرواية على قول ما لم يستطع التاريخ قوله، ومن ناحية أخرى، أنها جنس مَرِنٌ قابل لاستيعاب كل الأجناس وإن كانت الانطلاقة من مخطوط عملاً نادراً .

كما أن هذه العودة تُنصف الكاتب وتُقرب صورته روائيا وتاريخيا من المتلقي.فرواية أحمد الحجري هي نموذج لعودة الروائي إلى مخطوط نادر يتحدث عن سيرة أحمد الحجري. ولولاها لما عاد الباحث إلى سيرة الرجل ولما تعرف القارئ على كتابه الذي يُعتبر أهم وثيقة تاريخية تشي بتفوق الثقافة الأندلسية، لأنه كتاب يُوثق أول رحلة لعربي مسلم إلى هولندا، ويسجل انطباعاته ووصفَه لبعض المدن الهولندية مثل لايدن ولاهاي وأمستردام، إضافة إلى مناظراته مع اليهود والمسيحيين.

تُعلن رواية **عبد الواحد براهم**(*) **"تغريبة أحمد الحجري"** من البداية عن جُنوح الرواية التاريخية نحو تتبع سيرة الشخصيات وملاحقة بُطولة بقيت حبيسة التاريخ فتتحوّل بذلك السيرة إلى "بؤرة كتابة التخييل التاريخي"[1]، كما تُضاعف وجودها وكينونتها وهي تزج بها في عوالم تخييلية جمالية.

إن تزاوج كل من السياق الداخلي والخارجي نتج عنه علاقة بين رواية "تغريبة أحمد الحجري" والواقع المعيشي لمسلمي أسبانيا، من أجل تقديم صورة ناقدة وعميقة لأبعاد هذا الواقع الثقافية والسياسية والاجتماعية.

من هذا المنطلق لابد من استحضار السياق التاريخي الذي جرت فيه تغريبة الشخصية والعوامل المتحكمة فيها سواء منها الذاتية المتعلقة بالشخصية ومرجعيتها الثقافية واحتكاكها مع الآخر، أو الموضوعية المتعلقة بالظروف التاريخية حيث عرفت نهاية القرن الخامس عشر الميلادي مجموعة من التحولات كان لها أثر كبير على تاريخ البحر الأبيض المتوسط، حيث شكلت سنة 1492 حدثا أساسيا يستوجب الوقوف عنده، فالكشوفات الجغرافية واكتشاف أمريكا أحدثت تغيرا في ذهنية الإنسان الأوربي.

وأصبح هذا الأخير على وعي بمؤهلاته وقدراته في السيطرة على العالم، لذلك فهذه السنة وما تلاها من قرون شكلت المنعطف الحقيقي لبداية ازدهار النهضة الأوربية، في حين لم تشكل هذه السنة في الضفة الجنوبية والمجال العربي الإسلامي ككل إلا زمن الانتكاسات بضياع الأندلس وطرد المسلمين منها وتراجع الهيمنة الإسلامية على المتوسط لصالح أوربا التي انتقلت مع بداية القرن السادس عشر من مرحلة الاكتشاف إلى مرحلة التوسع على حساب الحضارات الأخرى. ومنذ هذه الفترة اخذت الهوة الحضارية تتسع وتتعمق بين ضفتي المتوسط، خاصة بعد أن فقدت الأمة العربية الإسلامية توازنها أمام صراع قوتين متعارضتين الإمبراطورية الإسبانية والإمبراطورية العثمانية التي تعتبر نفسها الوريث الحقيقي لهذه الأمة، وفي إطار هذا الصراع جاءت رحلة أحمد بن قاسم الحجري (أفوقاي) «ناصر الدين على القوم الكافرين» سنة 1610 إلى كل من اسبانيا وفرنسا وهولندا متزامنة مع هذه التحولات.

وتكمن أهمية هذه الرحلة في كونها شاهدة ومعبرة عن نمط الحوار الذي كان قائما بين «دار الإسلام» متمثلة في المغرب والإمبراطورية العثمانية من جهة و«دار الكفر والحرب» متمثلة في أوربا من جهة أخرى. ومنه أيضا أهمية هذه الرواية التي نقدت هذا الواقع الذي تجرعه المسلمون في كل شبر من هذه الأرض وفي اسبانيا بصورة خاصة فجسدت بذلك ثنائية الصراع بين الأنا المسلم والآخر الغربي من أجل الوصول إلى حوار سلمي تتجاوز فيه الأحقاد وتتضح فيه الرؤيا. تلك كانت مهمة أحمد الحجري سفير السلام والإسلام التي خاض لأجلها تغريبته روائيا ورحلته تاريخيا من أجل تغيير الواقع من خلال إقباله على المجادلات والمناظرات الدينية بين المسيحيين واليهود ولعل افتتاح الرواية بهذا، تحفزت كالهرة، ثم صرخت بأعلى صوتها:

"اسمع يا ثرثار.. إما أن تكف عن الكلام وإلا... بقي نصف العبارة في فمها، توقفت فجأة، (...) لم نفهم سبب هذا التحول كما لم نفهم عبارة التهديد ذاتها لأنها نطقتها بلغة لا نعرفها. أطلقت تهديدها بالغة العربية دون أن تشعر...وها نحن نسمع كلاما عربيا لأول مرة"[2].

ورد هذا المقطع على لسان أحمد الحجري الذي تذكر هذه الحادثة وهو طفل والتي كان لها تأثيرها في نفسيته ومن خلالها انعكس واقع مسلمي إسبانيا الذين كانوا يعيشون في خفاء واضطروا إلى تغيير حياتهم من أجل الآخر يعبر عن ذلك بقوله "لم يكن ما حدث أمرا عاديا، حياتي انفصمت منذ ذلك اليوم إلى شطرين: أحدهما ظاهر جهري معلن، والأخر مكتوم مستور مغطى. صار لي اسمان. ودينان ولغتان كما هو حال باقي أفراد الأسرة دون أن أدري هكذا كانت الأمور تسير دون أن أعلم. واليوم عرفت أن اسم روزاليا المنزلي هو وريدة وأن النطق به خارج البيت أو أمام الأغراب ممنوع".[3].

وينقل(براهم) هذا الواقع الإسباني من كتاب الحجري ويحوّره فقد ورد في كتابه ما يلي "...ثم ذكرت كيف كان حال المسلمين بين النصارى

بعد أن ادخلوهم جميعا كرها منهم في دينهم، وكانوا يعبدون دينين: دين النصارى جهرا ودين المسلمين في خفاء من الناس، وإذا ظهر على أحد شيء من دين المسلمين يحكمون فيهم الكفار الحكم القوي: يحرقون بعضهم كما شاهدت حالهم أكثر من عشرين سنة قبل خروجي منها..."[4].

إنه ليس واقع الشخصية وحدها وإنما واقع عام تجرع مرارته عرب الأندلس الذين كانوا يعيشون بنفس طريقة الحجري: باسمان ودينان ولغتان ...هذا الواقع الذي تكفلت الرواية بنقده والإشهار به من أجل تجسيد صورة الآخر الذي يسعى دائما إلى ضرب العربي في خصوصيته وفرض سطوته وسيطرته عليه.

وما عودة الرواية إلى التاريخ إلا محاولة لتسليط الضوء على واقع مضى وانقضى لكن حفر تجاعيد في ذاكرة الذات العربية والإسبانية خاصة .إنه واقع كل ذات عربية تعرضت لظلم الغرب كأن بالرواية تريد إبلاغ رسالة مفادها أن الآخر الغربي لن يتغير وأن همّ الذات العربية المسلمة واحد وذلك من خلال" امتداد التاريخي في الواقعي من خلال مماثلها على الصعيد الاجتماعي والسياسي"[5] وحتى ينوه الكاتب بحدّة الواقع وعمق المأساة ينقل للقارئ مقاطع في الرواية من الكتاب الأصل "ناصر الدين على القوم الكافرين" كما عبر عنها أحمد الحجري ورد ذلك مثلا في الفصل الخامس من الرواية والمعنون بـ"ذكر ما وقع مع أسقف غرناطة"هذا الفصل يحيل على الباب الأول من كتاب الحجري والمعنون بـ:

"في ذكر ما وقع لي بمدينة غرناطة مع القسيس الكبير في شأن قراءة الرق الذي وجد في الصومعة، وأيضا بعض ما صح عندي من الكتب المكتوبة بالعربية في ورق الرصاص".

وهذا الباب هو في الرحلة في الباب الثاني عشر منها.

"اعلم - رحمك الله- أنه في عام ست تسعين وتسع مائة من الهجرة ومن حساب النصارى عام ثماني وثمانين وخمس مائة وألف أمر القسيس الكبير بمدينة غرناطة بهدم صومعة قديمة كانت في الجامع الكبير وكانت تسمى من قديم الزمان تربيانة قبل الإسلام وذلك بعد أن بنوا صومعة قريبا منها عالية جدا.."[6]

وقد طعم (براهم) روايته من هذا الباب في هذا الفصل الخامس بمقاطع كثيرة ضمنيا دون أن ينبه القارئ في الهوامش أن هذا ليس كلامه، ربما هي طريقة احتيالية من الطرق التي يعتمدها المبدع ليوهم القارئ بمصداقيته ورسميته. كالمقطع التالي: "في عام أمر أسقف مدينة غرناطة دي سالفتيرا بهدم صومعة قديمة أحاذي الجامع الكبير كانت قبل الإسلام تدعى برج تربيانة لأن صومعة بنيت بقربها اجل واعلى..."[7] وفي وصفه لحال العرب يقول: "كيف الخلاص من هذه الورطة والنصارى تقتل وتحرق كل من يجدون عنده كتابا عربيا أو يعرفون حذقه للعربية..."[8]

إن كتاب الحجري نقد لواقع مُرّ وقد حافظت الرواية على نفس المحتوى فجاءت بدورها نقدا لنفس الواقع لكن بصورة أكثر وضوحا باعتبارها تقول ما سكت عنه التاريخ وإن كان المؤرخ هو نفسه الحجري الذي دَوَّن رحلته. لذلك يعتبر هذا الكتاب من أهم كتب الرحلة نقل صاحبه صورا لما شهده وخبره في أقاليم قريبة وبعيدة لاسيما في القرنين الماضيين اللّذين شهدا ولادة الاهتمام بالتجربة الغربية لدى النخب العربية المثقفة ومحاولة التعرف على المجتمعات والناس في الغرب كما أن الظاهرة الغربية التي اهتمت بقراءة الآخر وتأويله كانت دافعا ومحرضا بالنسبة للنخب العربية المثقفة التي وجدت نفسها في مواجهة صور غريبة لمجتمعات جديدة عليها، وهو ما استفز فيها العصب الحضاري، لتجد نفسها تملك الدوافع والأسباب لتشد الترحال نحو الآخر بحثا واستكشافا وتعود ومعها ما تعرضه وتنقله وتقوله في حضارته ونمط عيشه وأوضاعه ضاربة بذلك الأمثال للناس ولينبعث في المجتمعات العربية وللمرة الأولى صراع فكري حاد تستقطب إليه القوى الحيّة في المجتمع بين مؤيد للغرب موال له متحمس لأفكاره وصياغته، وبين معاد للغرب رافض له ومستعد لقتاله.

وإذا كان أدب الرحلة الغربي قد تمكن من الشرق والشرقيين، عبر رسم صور دنيا لهم، بواسطة مخيلة جائعة إلى السحري والعجائبي، فإن أدب الرحلة العربي إلى الغرب والعالم ركز أساسا على تتبع ملامح النهضة العلمية والصناعية وتطور العمران...لقد انصرف الرحالة العرب إلى تكحيل عيونهم بصور النهضة في تلك المجتمعات مدفوعين في الغالب بشغف البحث عن الجديد... واقتفاء أثر الآخر للخروج من حالة الشلل الحضاري التي وجد العرب أنفسهم فريسة لها..."[11].

إن هذه الرواية تستمد رهبتها من كونها تنطلق من كتاب لعلامة كبير هو **أحمد الحجري** الذي يعتبر من مؤسسي أدب الرحلة عند العرب أراد من خلال كتاباته تحدي الغرب. إذ يُعدُّ كتابه نصرة للعرب على الآخر فكريا من خلال المناظرات والمجادلات التي أجراها مع النصارى واليهود والتي كانت تنتهي في كل مرة بانتصاره عليهم بالحجة الدامغة والقول الفصيح.

فلهذا الكتاب أهميته "إذ يشكل ثروة معرفية كبيرة ومخزنا للقصص والظواهر والأفكار فضلا عن كونه مادة سردية شائقة تحتوي على الطريف والغريب والمدهش مما التقطته عيون تتجول وأنفس تنفعل بما ترى ووعي يلم بالأشياء ويحللها ويراقب الظواهر ويتفكر بها".[12] انعكست بدورها على الرواية فأكسبتها جمالية مقرونة بالتاريخ فجاءت كتابا في الرحلة وتاريخا لشخصية متفردة ونقدا لواقع فكري واجتماعي وسياسي وديني ساد في زمن من الأزمنة ولازالت آثاره باقية إلى الآن.

ليختم (براهم) روايته برسالة ينقد فيها ويندد بضرورة عدم احتقار الإنسان لأخيه الإنسان لأن العالم في الأخير كتلة واحدة والإنسان واحد مهما اختلفت الديانات والأعراف والثقافات هي صرخة الإبداع وصرخة الشخصية وصرخة بني الإنسان مجملة في هذا المقطع من الرواية:

"أنا أحمد بن قاسم البيجارانو، الحجري، الغرناطي، المراكشي، المغربي، التونسي لا أدري أي نسبة من هذه هي نسبتي؟
ولا أي بلد سكنته هو بلدي؟
ولا أي أرض وطئتها هي أرضي؟
فلأكن أنا العالمي ساكن الأرض... مثلك يا فرانشيسكو الهائم بمخطوط علي صولار بين الجهات الأربع".[13]

ختاما، لعل أهمية هذا العمل تكمن -إضافة إلى نقده واقعاً معيَّناً- "في قدرة صاحبه على تحويل الخطاب التاريخي النفعي الملتفت إلى الماضي خطابا روائيا إبداعيا منشغلا بقضايا الراهن جماليا وإيدولوجيا منفتحا على المستقبل"[14] وهي خاصية تحقق للعمل الروائي نجاحه دون شك.

هذا يجعلنا نقرّ بأن فنية الرواية تساعد على إعادة كتابة التاريخ وإثرائه وإخراجه في حلة جديدة، ولأن (**عبد الواحد براهم**) انطلق من مخطوط فقد جاءت مرجعية هذه الرواية أكثر تاريخية مقارنة بالروايات الأخرى. لكن رغم هذا المنطلق التاريخي،لم يُحدث تاريخ **أحمد الحجري** الذي عرضته الرواية قطيعة مع الجانب الفني للرواية وظل الجنس رواية بالنسبة للمتلقي. الذي تحايل عليه الكاتب بطريقة أو بأخرى وأوهمه أن النص تاريخي بالدرجة الأولى وفي هذا إثبات لقدرة الرواية على صهر باقي الأجناس الأخرى وقدرتها أيضا على التحويل والامتصاص من أجل أن تبني شكلها ومحتواها على أنقاض نصوص سابقة. يعبر عن هذه القدرة الروائية سعيد يقطين بقوله: "أن النص الروائي وهو يستوعب بنيات نصية عديدة ومختلفة، زمنيا وخطابيا ونوعيا كيف أنه ينتجها من جديد، من خلال منحه إياها دلالة وأبعادا مختلفة عن التي تكتسبها في سياقها. وهو بذلك يقدمها كعناصر بنيوية تساهم في عملية بنائه وتكوينه"[15]

فالرواية وإن انطلقت من مخطوط فيجوز لها أن تتخطى عتبات مصداقيته وتقول ما لم يقله المخطوط ولا التاريخ كما تميط اللثام عن المسكوت عنه. فإن كان التاريخ يقوم على مبدأ الالتزام بالحقيقة إلى درجة مطابقتها مع الواقع، فإن الرواية تزاح نحو التخييل باعتباره جوهر السرد الحكائي.

وهذا ديدن الرواية كعالم متكامل وهذا هو منطقها الذي "لا يخص الجانب التاريخي فحسب، بل نراه يتدخل في أقصى حالات الارتباط بما هو واقعي، ونعني بذلك السيرة الذاتية"[16]. كسيرة **أحمد الحجري** المؤرخ لها في هذه الرواية موضوع الدراسة والتي يثبت (عبد الواحد براهم) من خلالها قدر الرواية أو الفن عامة على ترميم الثغرات الشاغرة في مسار التاريخ وأن مهمة الروائي أكبر من المؤرخ فهو يفوقه خبرة ونبشاً في أرشيف الحقيقة التي ظلت مغيبة في سجلات التاريخ محاولا الوصول إليها والكشف عنها ومسح الغبار عن مراياها الباهتة.

فالمؤرخ محكوم بالعودة إلى المصادر التاريخية لتقديم الوقائع المثبتة، في حين يتنقل الروائي بين الماضي والحاضر بحرية تامة، ويعتمد التخيّل السردي لأحداث واقعة أو متخيلة، ويعمل على صياغة رواية أدبية شرط نجاحها الإبداع الفني لعالم حقيقي أو متخيل.

لقد خلخل (**عبد الواحد براهم**) نظام التاريخ وأخل ببنيته الأساسية دون إشعار المتلقي بذلك فرغم أنه أرهقه بعودته إلى تاريخ الحجري ودعوته إلى قراءة سيرته الذاتية ورغم التطابق بين التاريخ والرواية إلا أن هذا التطابق ما هو إلا تمويه على القارئ ولعبة سبر أغوارها (**براهم**) بكل ذكاء لأنه في الأخير لم يكن هدفه إلا "إعادة كتابة التاريخ بشكل مغاير للتاريخ الرسمي العقيم"[17] رغم اعتماده على شخصية حقيقية لها وجودها الفعلي الذي اثبته التاريخ (الحجري). فقد تم إظهار مدى التطابق بين الشخصيتين التاريخية والروائية لكن هذا لا يعني أنهما شخصية واحدة لأنه في هذه الحال ستكون مهمة الروائي هي نفسها مهمة المؤرخ وأن (عبد الواحد براهم) لم يضف أي جديد للقارئ وسيحيله على قراءة كتاب في التاريخ بدلا من رواية.

لقد تجاوز الروائي التاريخ وأثبت بجدارة أن مهمته ليست إعادة استنساخ التاريخ وإنما إعادة تحويله والبناء على أنقاضه من جديد وقول ما سكت عنه. وقد جهرت شخصية الحجري الروائية بالمسكوت عنه وتسريب الحقائق التاريخية والتعبير عن أفكار الكاتب وفق رؤيا تخدم عصرا جديدا وراهنا مختلفا يجهله التاريخ نفسه. فكتب بذلك رواية تندرج ضمن منظومة التواصل بين الأجيال والشعوب والثقافات كما أنشأ كوناً إبداعيا يشي بأخطاء الماضي وسلبياته من أجل بناء مستقبل ربما يكون مختلفا.

فمَّا يمكن قوله إن نص (**عبد الواحد براهم**) "تغريبة أحمد الحجري" أعاد كتابة التاريخ بطريقة فنية لسيرة عالم متفرد ظل مجهولا ومنسيا لأمد طويل، فما أكثر من يجهلون حقيقة هذا الرجل الموريسكي الذي جال العالم كله من أجل التعبير عن أفكاره وإرساء معالم الخير والحب في كل شبر من هذه الأرض لكن الرواية قدمته للمتلقي بوجه آخر وقربت صورته بوضوح رغم أنها ترتكز على التاريخ إلا أنها لم تبق وفية لميثاقه وخرقت مصداقيته وخانته لكنها من جانب آخر لم تنفه تماما، بل حاورته وسائلته ونقدته وصهرته لتعيد تشكيله من جديد وفق رؤيا مختلفة ليتعرف المتلقي على واقع هذه الشخصية بوضوح وعلى ما واجهت من مطبَّات كان سببها الآخر المختلف دينا وأخلاقا وعادات وتقاليد.

إن هذه الخلخلة التاريخية التي مارسها (**عبد الواحد براهم**) لم تُخل بجمال الرواية، بل أضفت عليها نظاما فنيا ليبقى التاريخ نصا سابقا بنى عليه الكاتب نصا لاحقا هو رواية "**تغريبة أحمد الحجري** "في شكل محوّل ومحوّر ومشكّل بطريقة فنية إبداعية تخييلية قربت الشخصية التاريخية من المتلقي أكثر.

ومنه، فإن الرواية وإن انطلقت من مخطوط تاريخي هذا لا يعني التزامها به وإنما ستخرق قوانينه من أجل بناء نص لاحق نعبر عنه بجنس الرواية.

- التفاعل الأجناسي والتنوع اللّغوي:

إنّ ما يميز الرواية هو قدرتها على استيعاب جميع الأجناس الأدبية المختلفة، والنص الروائي التاريخي حافل بأجناس أدبية مختلفة، ولعل هذه الرواية تتميز بهذا التوهج الأجناسي الذي يعتمده الروائيون كشواهد على إثراء النص الروائي التاريخي فيجد القارئ أن هذا النص قد انفتح على مجموعة من الأشكال الأدبية صاغت بدورها عالم (**براهم**) الروائي،إضافة إلى أن الكاتب اعتمد الكتاب الأصلي **للحجري** الذي يصفه بقوله إنه كتاب في المناظرات والمساجلات ورسائل بعثها بها إلى قساوسة وملوك من الإفرنج تطلب منه كل هذا رحلة طويلة وشاقة فضمن (**براهم**)روايته نصوصا من رحلة **الحجري** الأصلية نوردها بالشكل التالي:

1-الرسالة الرسمية:

تعددت الرسائل بشكل مكثف في رواية "أحمد الحجري "التي كانت في شكلها العام عبارة عن مناظرات وخطابات ورسائل كهذه الرسالة التي بعث بها قاضي نصراني من بلاد الفرنج إلى قضاة الأندلس "نأمركم أن تقفوا مع حامل هذا الخطاب الذي جاء يبحث في شؤون الأندلس، لأنّ السيد الكبير كتب إلينا في شأنهم – الملك الكبير: سلطان الأندلس"[18].

2- الوصية:

أما "**أحمد الحجري** " فقد حمل وصية السلطان زيدان (مراكش) إلى أحد السفراء يقول فيها: "أخبرته بلقائي الصباحي مع السلطان وبنية تكليف إيصال رسالة إلى ملك فرنسا بتعزيز وتوصية من أمير هولندة (...) ذكرت له مطلبي"[19].

3- الرحلة:

تنفتح رواية أحمد الحجري على السرد الرحلي، أو سرد السفر وما يحتويه من مغامرات تخوضها الشخصية التاريخية المُفعّلة للحدث.

فقد دلت لفظة (تغريبية) على (الرحلة) التي خاضها "أحمد الحجري" مجسدة في الخطب التالية:

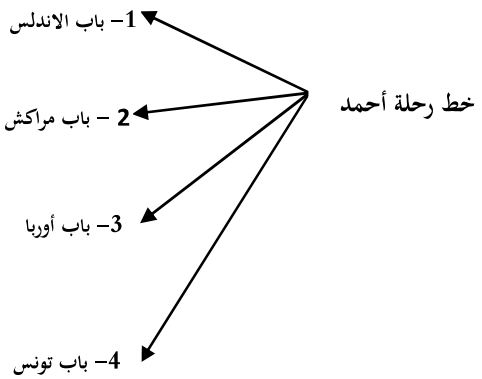

فقد بدأت الشخصية من الأندلس ثم مراكش، وأوروبا وصولا إلى تونس وهذه الأماكن بدورها تمثل المسار الذي قطعه **"أحمد الحجري"** أثناء تغريبته، رحلته التي كانت محفوفة بالمخاطر كما المسرات وقد أكسبته هذه التجارب كثيرا من المعارف والمعلومات الدينية والتاريخية والجغرافية.

4- المناظرة:

فأما في رواية **(عبد الواحد براهم)** فيجد القارئ أنه خصص فصلا تحت عنوان "في مناظرة المنجمين" ولابد من الإشارة أنّ هذه الرواية نقلت محتوى الكتاب التاريخي لصاحبه **أحمد الحجري** (رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب) الذي جاء محتواه عبارة عن مساجلات ومناظرات قام بها أحمد الحجري دفاعا عن الإسلام والعروبة كالمناظرة التي جرت بينه وبين المنجمين إذ سأله أحدهم: ((هل لك اهتمام خاصا بعلوم الفلك؟

- كان لي بديوان السلطان صديق محووس بالتنجيم فأطلعني على أعماله لكني لم أتوسع ولم أوسع معرفتي، إلى أن كلفني السلطان بترجمة زيج زكوط فتعمقت وبحثت لكن دون الوصول إلى درجة العالم المتبحّر

- ... ولا يمكنك أن تتبحر في هذا العلم لأنّه بلا حدود ولا شواطئ ثم ما الفائدة؟ لم ينتج يوما شيئا واضحا محددا.

- تقول هذا أنت الرجل المتمكن المجرب؟

- مجرب ... نعم، لكن معلوماتي دائما نسبية....))[20].

وتكررت مثل هذه المساجلات والمناظرات في مواقف كثيرة من الرواية وما يميزها هو اختلاف مواضيع المناظرة.

أما عن تنوع الخطابات فنجد مثلا:

أ- الخطاب التاريخي:

كالذي تجسد في مثل هذا المقطع: "دخلت عادة تدخين التبغ في إفريقيا السوداء عن طريق الأوربيين فوصلت إلى تمبكتو أولا، ومن هناك حملها السودانيون الذي رافقوا الفيلة إلى مراكش، ثم دخلوا بها فاس عام 1599"[21].

ب- الخطاب الجغرافي:

وهو يبيّن علم الشخصية بالمكان وعلاقتها به: "يشق المدينة ثلاثة شوارع عريفية أكبرها الشارع الأوسط ويوازيه من الأعلى في أبعد نقطة عن النهر شارع عرضه عشرون ذراعا وبه ساقيتان لتصريف المياه، ويوجد شارع ثالث مثله لكن بدون سواق وهو محاذي للجامع الكبير ولا يفصله عن النهر إلا حي سكنه الخزافون وصناع القرميد".[22]

ج- الخطاب الديني:

إن الخليقة الإنسانية على أربعة أقسام: القسم الأول: خلق الله تعالى أبانا آدم عليه السلام من غير أبوين. القسم الثاني: خلق أمّنا حواء من غير أم، القسم الثالث: خلق سائر الناس من أبوين. القسم الرابع: خلق سيدنا من أم وليس له أب. كما خلق أمّنا حواء وليس لها أمّ[23].

الاتعاظ بحوادث التاريخ ومساره واستعادة نماذج بطولاته ومفاخره، من أهم الأسباب التي دفعت الروائي**(عبد الواحد براهم)** إلى العودة للتاريخ ليربط حلقة الحاضر بالماضي، مستحضرا شخصية تاريخية،

(أحمد الحجري الموريسكي) ويخوض معها تغريبة تاريخية بروح عصرية فرضتها سلطة الرواية، لذلك فهو لم يتشرنق في إطار الماضي ولم يقم فيه طويلا، بل انتقل منه ليُقيم في الحاضر إيمانا منه أن الاستغراق في نهب التاريخ ليس من مهامه كروائي مادته التخييل وهدفه تحويل التاريخ لا تكراره.

إنّ عودة (براهم) للتاريخ واعتكافه على دراسته، بدا واضحا من خلال غزارة مادته التاريخية التي عمقت نصه الروائي ووشت بجهده الكبير المبذول في انتقائه المادة التاريخية، فحبّ الرجل لماضي شخصيته وتاريخها جعله يبذل جهدا لأجلها، لكن هذا السبب لم يحل دون تخطيه ذلك التاريخ وتجاوزه دون نسيانه، فخاضت الشخصية تغريبتها ممازجة بين التاريخ منطلقة نحو المستقبل، وبين الماضي والمستقبل عاصر الروائي تجربة الحاضر. لقد كانت عودته إلى التاريخ من أجل إنجاز الحاضر.

التعريف بشخصية **"أحمد الحجري"** كاتبا باعتباره صاحب كتاب (ناصر الدين على القوم الكافرين) الذي هو إعادة لكتابه الأصلي والنادر (رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب) والذي استقى منه الكاتب فكرة الرواية.

والتعريف به مبدعا مؤمنا بقيمة التاريخ ورد هذا في الرواية من خلال قول **أحمد الحجري**: "إنّ الأوراق تشهد كيف اقتبست النص من كتاب تاريخي"[24]، وهنا إحالة إلى أهمية التاريخ وعلاقته بالإبداع.

والتعريف به مؤرخا: "دخلت عادة تدخين التبغ إفريقيا السوداء عن طريق الأوربيين فوصلت إلى تمبكتو أولا ومن هناك حملها السودانيون الذين رافقوا القبلة إلى مراكش ثم دخلوا بها فاس عام 1599م".

وعالما جغرافيا قادرا على ضبط بوصلة الأماكن: "يشق المدينة تستور ثلاثة شوارع عريضة أكبرها الشاعر الأوسط ويوازيه من أعلى في أبعد نقطة عن النّهر شارع عرضه عشرون ذراعا وبه ساقيتان لتصريف المياه، ويوجد شارع ثالث مثله لكن بدون سواقي وهو محاذ للجامع الكبير، ولا يفصله عن النّهر إلا حيّ يسكنه الخزّافون وصنّاع القرميد"[25].

وفقيها في الدين عالما بأصول الشريعة يتجلى ذلك في قوله: "إنّ الخليقة الإنسانية على أربعة أقسام: القسم الأول: خلق الله تعالى أبانا آدم عليه السلام من غير أبوين. القسم الثاني: خلق أمنا حواء من غير أمّ. القسم الثالث: خلق سائر الناس من أبوين. القسم الرابع: خلق سيدنا عيسى عليه السلام من أمّ وليس له أب، كما خلق أمّنا حواء وليس لها أمّ"[26].

ومترجما يقول **أحمد الحجري**:" انتقلت بعد انتهائي دراستي الثانوية في غرناطة إلى طليطلة لتعميق مهاراتي في الترجمة، وقد ساعدني على ذلك أساتذة عمد تتلمذت عليهم، وفضول شديد لاكتشاف أسرار اللغات والتعمّق في مدلولاتها المضمونية، فحذقت القشتالية والبرتغالية والعبرية، كما حصلت معارف باللغتين الفرنسية والإيطالية"[27].

لقد عاد (عبد الواحد براهم) إلى التاريخ ليُعرف بشخصية **أحمد الحجري** وبمعارفها الدينية والدنيوية فاجتمعت في روايته خطابات مختلفة ومتنوعة تُثبت (حوارية الرواية التي تجعل منها جنسا آكلا لسائر الخطابات والأجناس). إنه استحضار للتاريخ من أجل إثبات أنه متاه في جسد الرواية وأنها ستصبح في الأخير الكل وهو الجزء، أنه انصهار للقديم والجديد، الموضوعي والتخييلي، والتاريخي والروائي "ولعل في نسج الرواية على منوال السيرة الذاتية التي يكتبها عبد الواحد براهم نيابة عن أحمد الحجري ما يجعل هذه العملية مقبولة من الناحيتين الإجرائية والجمالية"[28].

إنّ العودة إلى التاريخ في هذه الرواية درس في طريقة تعامل المبدع معه، كيف يُحوّله كيف يبني على أنقاضه منجزا روائيا. لا شك أنّ عودة الروائي إلى التاريخ كما يرى ذلك "محمد القاضي" أنّ "شخصية أحمد الحجري قد استهوت عبد الواحد براهم لما في حياتها من عذاب ومغامرة وشجاعة وإيمان، ولكن ذلك لا يكفي، فالفترة التي عاش فيها الحجري في فترة استعلاء الغرب وتمّره وعدوانه السافر على كل من خالفه الرأي أو الجنس أو المعتقد، ومن ثم فليس أحسن من العودة إلى هذا الطّور لبيان مصدر الخطأ والكشف عن الجوانب المضيئة في حضارة الإسلام"[29].

إنّ العودة إلى التاريخ أيضا استجابة لقضايا العصر وإرساء لمعالم التسامح والحوار بين الشعور والديانات.

وهي دعوة إلى ضرورة الاهتمام بالإشكالات النظرية والعلمية في الأدب الموريسكي وجعلها موضوعات مخصوصة بالبحث والدرس باعتبارها خطابات تتداخل فيها أنواع مختلفة من الكتابة وخطابات سردية متعددة.

إنّ **أحمد الحجري** لما كتب (ناصر الدين على القوم الكافرين) أراد أن يكون هذا الكتاب ((مجادلة للنصرانية والنصارى ودفاعا عن الإسلام والمسلمين، ومنهجا في القيام بذلك وسبيلا من سبل إنجازه، غير أنّ ذلك لم يمنعه من أن يجعل من هذا الكتاب كذلك شهادة حية على عصره، فهو يُلقي لنا فيه أضواء جديدة على بعض ما عرف غرب البحر الأبيض المتوسط من أحداث خلال القرن السابع عشر"[30].

وعندما اعتمد (**عبد الواحد براهم**) الكتاب مرجعا تاريخيا لكتابة روايته ربما أراد أن يُحقق نفس المراد فجاءت روايته امتدادا للكتاب وتمجيدا لإنجازات الموريسكيين ووقوفهم في وجه النصارى. إنها رسالة إنسانية ذات فحوى عميق، تشي بأهمية رحلة (أحمد الحجري) أديبا وحضاريا لكونه شخصا ربط بين حضارتين (إسلامية ومسيحية) واستطاع أن يحقق أمل جميع الأندلسيين بطريقة ما.

طعام شامخة

الهوامش:

*- عبد الواحد براهم: أديب تونسي من مواليد سنة 1933، كتب القصّة والرواية وأدب الرّحلة وقصّة الأطفال والشباب، واهتمّ بالنّقد

والمقال وأقبل على المطالعة منذ شبابه واطّلع على أعمال أدبية قديمة لابن المقفّع والجاحظ والهمذاني وغيرهم، وأعمال حديثة لجبران والرّافعي وتيمور وغيرهم، وأعمال أدبية عالمية لـ:موباسان وغوركي وكزنتزاكي وفولكنر وغيرهم. نشر إنتاجه في صحف ومجلاّت تونسية وعربية عديدة. وهو يشتغل بالنّشر حاليا ويدير سلسلة لمطالعات الشباب.

مؤلّفاته:

في بلاد كسرى (في أدب الرّحلة)، ظلال على الأرض (قصص)، سيدي بوغرارة (قصّة للأطفال)، حبّ الزّمن المجنون (رواية)، الأمير والفقير (مترجمة للشباب)، علّيسة (مترجمة للشباب)، قبّة آخر الزّمان بنزرت تاريخ وذاكرة (رواية)، أصوات قرطاج (مسرحية شعرية) . . . بحر هادىء، سماء زرقاء (رواية)

1)- عبد الفتاح الحجمري، هل لدينا رواية تاريخية، مجلة فصول، مج 16، ع2، شتاء 1997 ص05.

2)- عبد الواحد براهم، تغريبة أحمد الحجري، ص180.

3)- المصدر نفسه، ص167.

4)- المصدر نفسه، ص ص233، 234.

5- المصدر نفسه ، ص144.

6)- المصدر نفسه، ص158.

7)- المصدر، ص207.

8)- المصدر نفسه، ص207.

9)- تمبكتو: ينبكتو أو تُمبُكْتُو وسميت قديما تنبكت مدينة في مالي، من أهم العواصم الإسلامية في غرب أفريقيا، وتلقب «بجوهرة الصحراء المتربعة على الرمال»، وهي البوابة بين شمال أفريقيا وغرب أفريقيا، وهي ملتقى القوافل البرية للقادمين من النيجر وليبيا.

10)- عبد الواحد براهم، تغريبة أحمد الحجري، ص158.

11)- تستور، مدينة تونسية تقع على هضبة في حوض مجردة شمالي البلاد تبعد تستور 21 كم على مدينة مجاز الباب و76 كم على العاصمة تونس.

12)- عبد الواحد براهم، تغريبة أحمد الحجري، ص ص279، 280.

13)- واسيني الأعرج، رواية الأمير، ص207.

14)- المصدر نفسه، ص61.

15)- محمد القاضي، الرواية والتاريخ، ص170.

16)- المرجع نفسه، ص172.

17)- المرجع نفسه، ص ص176،177.

18)- المرجع نفسه، ص177.

19)- عبد الواحد براهم، تغريبة أحمد الحجري ، ص61.

20)- المصدر نفسه، ص77.

21)- المصدر نفسه، ص78.

22)- المصدر نفسه، ص78.

23)- المصدر نفسه، ص206.

24)- المصدر نفسه، ص217.

25)- المصدر نفسه، ص200.

26)- المصدر نفسه، ص202.

27)- المصدر نفسه، ص201

28)- المصدر نفسه، ص217.

29)- محمد القاضي، الرواية والتاريخ، ص178.

30)- المرجع نفسه، ص176.